عيسى عليه السلام

عيسى الوليد

في يوم ما اعتكفت مريم كعادتها، تصلي لله وتعبده، فاضطربت نفسها فجأة، وداخلتها رَهْبة لم تعهدها من قبل، وظهر أمامها ملكٌ من السماء، وقد تمثل لها بشراً سويًّا؛ لتأنس به، ولا تنفر منه؛ فحاولت الهروب، واستعاذت بالله إذ ظنته معتدياً أثيماً، وفاجراً زنيماً[1]، وهي التقية المؤمنة، العفيفة الطاهرة، ولكنه أعاد إليها طمأنينتها، وسكّن رَوْعَها، ثم أخذ يتحدث إليها قائلاً: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾[2]﴾[3].

فغشيتها سحابة من الحزن، وطافت بها موجةٌ من الأسى، ولكن هَوْل الموقف وشدّته لم يعقدا لسانها، بل استجمعت شارد قُوَّتها، وخرجت من صَمتِها، وحاكته قائلة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾[4]﴾[5].

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾[6] ثم مضىٰ واختفىٰ.

جلست حائرة تفكر فيما سمعته، وأوجست في نفسها خيفة، ولا شك أنها تخيَّلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها بَعْل[7]، وأنها قد أفزعتها

---

(١) الزنيم: اللئيم المعروف بلؤمه أو شره.
(٢) زكياً: صالحاً.
(٣) سورة: مريم، الآية: ١٩.
(٤) بغياً: فاجرة.
(٥) سورة: مريم، الآية: ٢٠.
(٦) سورة: مريم، الآية: ٢١.
(٧) والبعل: الزوج.

هذه الأفكار، وصيَّرتها قلقة مضطربة؛ إذ قد بدت تفطِن إلى الريبة التي سوف تخامر قلوب الناس، والشكوك التي ستخالج نفوسهم، فأصبحت تحبُّ العُزْلة، وتميل إلى الإنفراد، واستحوذ عليها الحزن، وغلب عليها الخوف، وصارت دائمة التفكير في ذلك السر الرهيب الذي أُغلق عليه داخل أحشائها.

مرت أشهر، وهي تقاسي الآلام النفسية المبرِّحة، وتتعاورها الأحزان، وتنتابها الوساوس، وتمضي أكثر أوقاتها منفردة كئيبة، لا يهْنأ لها عيش، ولا يطيب لها طعام ولا شراب، وكثيراً ما كانت تُرَى شاردةَ الفكر، موزَّعة النفس، لا تصغي إلى حديث، ولا تُعْنى بأمر.

حَلّت تلك الفتاةُ المثقلة بالهموم في «الناصرة»[1]، منبتها ومسقط رأسها، وأقامت في بيت ريفي، خلا من كل بهجة ورُواء، وقد تكون اتخذت هذا البيت جُنّة تستتر فيه عن أعين الناس، وتختفي به عن أنظار الرقباء، وأظنها كانت تنأى عن الاختلاط بقومها، والاتصال بعشيرتها متظاهرة بالتعب والإعياء، خوفاً من أن يُفَضَّ مكنون سرها، ويُكْشف مستور أمرها، فتلوك الألسنة اسمها، ويتحدث الناس في شأنها، وكلما تقدمت بها الأيام زاد همُّها، وكثر حزنها، فسيظهر ما تحرص الآن على أن تخفيه، ويشيع ما تحاول أن تستره!

رُحماك يا رب! ما هذا الذي يخبئه لها القدر، وما تكنّه لها الليالي؟ إنها من أسرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، لم يكُن أبوها أمرأ سوءٍ، وما كانت أمها بغيًّا، فكَيف تلوك الألسنة الحديث في عِرْضها؟ وبماذا تدفع عن نفسها تلك التهمة التي ستُرْمى بها؟ حقاً إنه أمر ترتعد له الفرائص، ويشيب من هَوْله الوِلدان. أيزعمون أنها فقدت أثمنَ ما تحرص عليه الفتاة، ويقولون: إنها أوْدت بكرامة أهلها، ووسَمتْ أسرتها بما يَثلِم شَرفَها، وينزِلها من عليائها. ويُلْصق بالرَّغام[2] أنفها! إن ذلك لعظيم، كلُّ ذلك كان أو سيكون مع أنها لم ترتكب إثماً، ولم تقترف ذنباً، وهي بَرَاءٌ من كل ما يجول بنفوسهم، وأبعد ما تكون عما يمرُّ بخواطرهم.

---

(١) الناصرة: قرية بفلسطين تبعد عن طبرية ثلاثة عشر ميلاً.

(٢) الرغام: التراب، يقال: ألقاه في الرغام: أذله وأهانه.

وهل تستطيع، وهي في هذا الحرَج والضيق، إلا أن تستسلم لقضاء الله، وتنتظر ما يأتي به القدَر، وتكنّه الأيام؟

وليس من شك في أن ما درجت عليه من عبادة الله وتقواه خفف عنها بعض ما كانت تعانيه، وجعلها تترقب لضيقها فرَجاً، ولنفسها الفَزِعة سكُوناً وأمْناً؛ أو لم يُنبِئها المَلكُ أنها ستلد منْ يُكلِّمُ الناس في المهد؟! أليس ذلك كافياً لرد كيد الناس، وأوضح برهان على براءتها وطُهرها؟

قد كان ذلك سلْوتها، وأملها الذي تتعلق به، وترجو الخلاص من طريقه.

اقتربت ساعةُ الوضع، وأحستْ ألَمَ المخاض[١]، وخرجت من القرية فأجَاءَها[٢] المخاضُ إلى جذع نُخلة يابسة، وهي وحيدة منفردة بلا يد شفيقة تسدّدها وتساعدها، وتخفف آلامَها وتعالجها، هناك قاست تلك الأم العذراء آلام الوضع، وفي الفضاء الواسع ولدت الطفل.

آلمتها تلك الوَحدة، وحَزَّ في نفسها رؤية تلك الثمرة، فنظرت إلى الطفل في حسرة واكتئاب، وجعلت تتمنى لو ضمها القبر، وفارقت هذا العالم قبل أن تصير أمًّا من غير أن تتزوج، فقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾[٣].

هي الآن لا تدري ماذا تفعل؛ سُقِط في يدها، وتحيّرت في أمرها؛ واشتدّ حزنها، وغلى مِرْجل غيظها، وجلست حانقة ساخطة، ولكنها ما لبثت أن سمعت صوتاً يَرِنُّ صَدَاه في أذنها، فبدّد مخاوفها، وكفكَف دموعها، وناداها من تحتها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾[٤][٥]، يجري ماؤه في تلك البقعة الجرداء ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾[٦] فكُلي منه ليعيد إليك بعض ما فقدت من قوة، واشربي وقَرِّي

(١) المخاض: وجع الولادة.
(٢) فأجاءها: جاء بها وألجأها.
(٣) سورة: مريم، الآية: ٢٣.
(٤) سرياً: نهر ماء كان قد انقطع.
(٥) سورة: مريم، الآية: ٢٤.
(٦) سورة: مريم، الآية: ٢٥.

عيناً، واطمئني قلباً، بما ترين من قدرة الله التي اخضرَّ بها جِذْع النخلة اليابسة، وطِيبي نفساً بما حباك الله من جرَيان الماء في تلك البقعة المقفرة.

قد كانت تلك المعجزة ـ بلا شك ـ أقوى دليل على براءتها، وأسطعَ برهان على طُهْرِها، وقد كانت آية بينةً تردُّ بها قذفَ القاذفين، وعيب العائبين، ولكنها إنما تدفع التهمة، وتقيم بها الحجة على من يحاجُّونها في هذا المكان الذي أجاءها المخاضُ إليه وهي تريدُ الجوابَ الذي تجيب به لُوّامها، والزارين[1] عليها، والمعيِّرين لها، وهم الذين سيستقبلونها في القرية، ويسلُقونها بألسنة حِداد؛ لذلك لم تتبدد مخاوفها، ولم تنقشع سحابةُ حزنها.

وكأن ذلك المولود الصغير، قد أطلعَهُ الله على سبب حيرتها، وكشف له عن دخيلة نفسها، فكَفاها الكلام بما يبرئها، وأخذ على نفسه الجواب عما يوجَّه إليها، فقال: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾[2].

اطمأنتْ نفسها، وعاد إليها ما عزَب من لُبِّها، واستجمعت قوّتها، ورجعت إلى القرية، وأتت به قومها تحْمله، وسرعان ما شاع أمرها، وعُرفَ خبرها، فَسرَحوا في عِرضها، وتحدثوا في طهْرِها، وأخذ بعضهم يوجه اللوم إليها، ويشتد في تأنيبها وتقريعها، ويُذكِّرها بشرف أسرتها، وكرم مَحتدها، فقالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا[3] ﴿٢٧﴾ ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾[4].

لم تنفرج شفتاها، وعَقدَ الحياءُ لسانها، والتزمت الصمت، وأبت الكلام، وقالت: إني نذرتُ للرحمٰنِ صَوْماً، فلن أتكلم بكلمة أو أردّ سؤالاً. وإن أردتم الوقوف على جَليَّة الأمر فيها هو ذا ـ وأشارت إلى الغلام ـ أن كلِّموه! فعجبوا من أمرها، وسخروا من إشارتها، وقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾[5].

---

(١) زرى عليه: عابه وعاتبه.
(٢) سورة: مريم، الآية: ٢٦.
(٣) فرياً: عظيماً.
(٤) سورة: مريم، الآيتان: ٢٧ و٢٨.
(٥) سورة: مريم، الآية: ٢٩.

ولكن الله أنطق لسان ذلك الصغير، وأطلق الصوت من تلك اللَّهَاة التي لما يكتمل تكوينها بعد، وحرّك تلك الشفاه التي لما تهتدِ إلى موضع الأثداء! موجِّهاً إليهم الخطاب في وضوح وبيان، ولكنه لم يتحدّث إليهم فيما وجَّهُوه إلى أمه من لَوْم، أو يجادلهم في تهمتهم التي ألصقُوها بتلك البارَّة الطاهرة، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[1].

أتُراه بعد هذا في حاجة إلى دليل يَمْحَق باطلهم، أو برهانٍ يبيِّن كذبَهُم! ألم يُنطقه الله بالحكمة، ويُعِدّه للنبوة، وهو لم يزل في المهد صبياً، وفي حِجْر أمه طفلاً؟ قد كان هذا آيةٌ على براءتها، ومعجزة دالة على طهرها؛ إذ القدرة التي أنطقته بالحكمة في هذه السنِّ لا تعْجِز عن خلق مثله من غير أب، فبكلمةٍ منه خُلِق، فليْكفُّوا إذاً عن لومهم، وليتجنبوا الخوض في عِرْضها، وإشعال الفتنة حولها.

ولا نظن إلا أن هذا الصوت قد بَهَرهم، وتلك الآية أخرست ألسنتهم، وأن هذه الحكمة من طفل في مَهْدِه قد ذاع أمرها في القرية، وانتشر خبرها في هذه الحِلّة، وصارت حديث الناس في دورهم، ومجال القول في أنديتهم فأكبروا من شأن هذا الوليد، وبدّلوا بظنهم السيء يقيناً ببراءتها، وعلموا أن هذا الصبي ليس كصْبية القرية، بل سيكون له شأنٌ خطير، وخطب جليل.

وليس لك أن تتصور أن هذا هو ما اعتقده الناس جميعاً! فمحال أن تجتمع كلمتهم على شيء، بل إني لأرَى بعضهم قد ظنه حديث خرَافة، أو حسبه شيئاً ابتدعه أهلها، رغبة منهم في إظهار براءتها وستْر فعْلتها، وحبًّا في قطع ألسنة السوء التي طار شُواظها يُلهبْهم ويؤذيهم، ولا شك أن هؤلاء الذين لم تقْرَع أسماعَهم الحجة، ولم يمح شكهم البرهانُ الواضح كانوا قِلّةً، وكانوا من الجهالة بحيث لا ينصاعون للحق، ولا تبدد وساوسهم الحجة البالغة، والآية البينة، فلم تستسغ عقولُهم أن الله ـ الذي يُمْسك السموات والأرض أن تزُولا، وبيده ملكوتهما ـ قادر على أن يخلق إنساناً بكلمة منه، وأن ربهم الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكُون يستطيع أن يخالف المنهج الذي أَلِفوه، والطريق الذي اعتادوه.

---

(١) سورة: مريم، الآيات: ٣٠ ـ ٣٣.

وخلْقٌ هذا شأنهم أجدرُ بأن تنبذهم نَبْذَ النواة، وأولى ألا تقيم لكلامهم وَزْناً، ولا لرأيهم قدراً، ولعل حِقداً نشِب في صدورهم، وغِلاً تمكن من نفوسهم، فأعمى أبصارهم، وطبع على قلوبهم، لذلك نراها لم تحتَفِلْ بتلك الفئة الظالمة ولم تَعْنَ بتلك الجماعة المكابرة، وأقامت في القرية تُعْنَى بطفلها، وتُرَبي وليدها، قريرةَ النفس، منشرِحة الصدر، لأنها تعلم أن الله سوف يكلؤه برعايته، ويحفظه بعنايته، حتى يؤدي رسالتَه.

* * *

نبوة عيسى

نشأ عيسى كما ينشأُ كثير من الأطفال، وَشَبَّ كما يَشِبّ جلُّ البنين، إلا أنه قد ظهرت بوادِرُ فضله، وبدت مظاهر نبوتِهِ؛ فهو إذ يلعب مع لِدَاته؛ ويلهو مع أقرانه ينبِّئُهُم بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم، وهو إذ يذهب إلى معلم القريَةِ، ويجلس إليه، لا يَـنْهَجُ منهج غيره، ولا يسلك سبيل أنداده،بل تراه يستمع إلى حديثه في جدّ واهتمام، وَيُصْغي إلى درسه في شوق ولهفة، ثم هو لا يعلِّمهُ شيئاً إلا بدَرَهُ إليه، وسَاءَله عنه، فلا تغيب عنه شَارِدَةٌ، ولا تنبو عن ذهنه مسألة.

ثم يرحل إلى بيت المقدس مع أمه، ولم تَـعْدُ سنُّه الثانية عشرة من عمره، فلا يَـبْهَـرُهُ ما يرى من جماعات مختلفة، وألوان من الناس متباينة، ولا يفتنه ما يقع عليه بصرُه من مشاهدَ رائعة، ومظاهر خلابة سَاحرة، ولم تُلهه تلك المدنية بزيفها، أو يَـزُغْ بصره من زخرفها، وهو في هذه السن التي هي في مجرى العادة لا توحي إلا بالعَـبَث، ولا تدفع إلا إلى اللهو، ولكنه يُـغضي عن كل ذلِكَ، ويلقي بنفسه في ميدان العلم، يستقي من مَوْرِدِه، ويرتَوِي من مَـنْهَله، ويلزَمُ حلقة الدرْس، يصفي لمن اتخذوا لأنفسهم سمْتَ العلماء، وهم يُـزَخْرفون للناس أحاديثهم.

ولما اندمج في جماعتهم، واحتوته حَلْقتهم، أنصت إلى حديث الكهنة كما ينصت الناسُ، واستمع إلى آرائهم كما يستمعون، فَوَجَد القوم يؤمنون بكل قول، ويصَدِّقون كل حديث، وهم جميعاً يُـنْصِتُون كأنَّ على رؤوسهم الطير؛ فلم يلبث أن انبرى من بينهم متسائلاً، وانتضى سيفَ الحقِّ مقاتلاً، فنقَمَ بعض الناس جرأته، وأنكَروا عليه مسألتهُ،

وضاق العلماء به ذرْعاً، وأوسعوهُ تانيباً؛ إذ لم يعهدوا ـ قبلَهُ ـ أن يجترىء أحد على جِدَالهم، أو يُقْدِم سامع على البحث في قولهم.

ولكنهُ لم يعبأ بما كالُوا له، ولم يصرفهُ ما قابلوهُ به، بل استمر يُمْطِرهم بأسئلته، ويسد المسالك أمامهم بمحاجتِهِ.

وأنساهُ ذلك طعامه، وألهاه عن شرابهِ، وانتظرت أمُّهُ أوْبَتَهُ، ولكنهُ لم يرجع، فبحثت عنهُ في كل مكان تظنُه يهواه، وفَتشت عنه في كل مَجَال تحسبه يروده، ولكنها عادت يائسة من لقائه، ورجعت غير آملة في العثور عليه.

ولما أعياهَا البحث ظنته قد رجع مع بعض أقاربه، أو سافر به بعض أهله بلده؛ فعادت إلى قريتها، وهي تحسبُ أنه قد سبقهَا إليهَا، وسألت عنه فلم تجده، وحاوَلتْ أن تقفَ على حبره وتتسمَّع نبأه، ولكنها لم تجد صدىً لصوتهَا، ولا أثراً لندائها، فقفلت راجعه إلى بيت المقدس تعيد الكَرّة في سؤالهَا، وتطلب المزيدَ من بحثها.

ولم تترك في هذه المرة مكاناً إلا دخلته، أو باباً إلا ولجتهُ وبينما هي مجدَّة في بحثها، وقعَتْ عليه عيناَهَا وقد اندمج في زُمْرَة العلمَاء، وزج بنفسه في لجة الباحثين، وهو يكثرُ معهُمُ الحوار، ويتطَاول عليهم في الجدال، فَدُهِشَتْ لمَا رأت، وأزعجهَا ما شَاهدتْ، ودعتهُ إليهَا، وسَاءَلته عمَّا ألهَاهُ عنها، وأنَّبته لفعلتِه، وعنفته لغيابه. ولامته على أنه أتعبها في البحث عنه، وأضناها في السؤال عن مكانه، فأجابَها بأنه قد استَهْوَته منَاقشة الحكماء، ومنَاقلة العلمَاء... ثم سَارَ معَ أمه ورجع إلى النَّاصرة.

ولما بلغ الثلاثين من عمره هبط عليه الرُّوح الأمين، فكان ذلك بدء الرسالة وفاتحة النبوَّة، ثم تَلَقى من ربه الكتاب الذي جاء مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة؛ فأخذ يؤذِّن في الناس برسَالتِه، ويدعوهم إلى متابعته، ويسعى في أن يرد اليهود عن زيغهم، ويصدّهُمْ عن ضلالهم، فقد انحرفوا عن الطريق القويمة، وحَرَّفوا شريعة موسى السمحة، وجعلوا همهُمْ جَمْعَ المال، فصَاروا يُحَرِّضونَ الفقراء والمحتاجين على أن يقدموا للهيكل مَا استطاعوا من نَذور، ويؤثروه بما ملكت أيمانهم من هبات، ليسيل النُّضار[1]، إلى جيوبهم، ويتدفق الذهب في خزائنهم؛ وإن كان مَنْ يُحَرِّضونهم في أمَسِّ الحاجة إلى المال، يعولون به

(١) النضار: الذهب.

آباءهم، ويربون منه أبناءهم، ويُـمْسِكُون به رمَـقَـهُمْ[١]، ويسترون به أجسامهم.

وكان من اليهود طائفة أنكَرُوا القيَامة، واستبعدوا الحشر، وكذبوا بالحساب والعقابِ. وطائفة غيرهم ألهتهم الحياةُ الدنيا، وانغمسوا في ملاذِّها، وأقبلوا على شهواتها، يستسرون بها، ويتسترون عن أعين الناس وهم يقترفونَهَا، يُرَاءون الناس ليوقعوهم في مخالبهم ويبتزُّوا أموالهم.

هذه كانت الحال عندما بزغ نجم عيسى، وأشرقت شمسه، وبعثه الله ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فلم يترك سبيلاً لهدايتهم إلا سلكه، ولا باباً إلاّ طرقه، يحاول أن ينتشلهم من هذه الوهدة، ويخلصهم من تلك الْحَمَأة.

وشعرَ رجالُ الدين بالتيار يجرفهم، وأحسُّوا بالخطر يدهَمُهم؛ فها هو ذا عيسى ينكر عليهم انغماسهم في الشهوات، وتَهَالُكهم على اللذات، وتسابقهم إلى جمع المال، ثم هو يفضح أسرارهم، وينشر بين الناس مخازيهم، فأجمعوا أمرهم بينهم على مناوأته أينما حلَّ، وتكذيبه حيثما ذهب.

ولكنه لم يُبالِ جمعهم، ولم تَـثْنه مناوأتهم؛ بل صمدَ في سبيل الحق، وثبت لدعوة الصدق، وسار متنقلاً بين القرى يُزَيِّفُ آراءهم، ويفنِّـدُ[٢] أقوالهم، فطالبوه بما يؤيد رسالته، ويثبتُ دعوته، ويدلها على نبُوَّتِه، فأيدَهُ الله بالمعجزة الباهرة وآزره بالآية البينة، فصار يخْلُقُ من الطِّين كهيئة الطير، فينفخُ فيه فيكونُ طيراً بإذن الله، ويبرىء الأكْمَهَ[٣] والأبْرَصَ[٤]، ويُحْيـي الموتى بإذن الله.

ولا شك أن ذلك أمر لا يستطيع أحد أن يعالجه، ولا يقدر بَشر أن يأتي به إلا بتأييد من الله، ونَصْرٍ من عنده، ولكنهم مع قيام حُجَّته، ووضوح آيته، تمادوا في طغيانِهم، وثبتوا على ضلالهم، وقال الذين كفروا منهم: إن هذا إلاَّ سحرٌ مبين!!

ثم وَجَدت دعوته آذاناً صَاغية، وقلوباً واعية عند كثير ممن لم تفتنهم زخارف الدنيَا،

---

(١) الرمق: بقية الروح.
(٢) فنَّد فلاناً: خطَّأ رأيه.
(٣) الأكمه: الذي يولد أعمى.
(٤) البرص: بياض يقع في الجسد لعلة، الأبرص: المصاب بالبرص.

ولم تمتد أعيُـنُهم إلى متاعها، ودفعته الحميّة لدينه، إلى أن ينقضَّ على رجال الدين في جُحْرِهم، ويقتحمَ عليهم حِصنهم، فرحل إلى بيت المقدس، واختارَ يوم عيدهم، ووقت اجتماعهم، وعرض دعوته على الوافدين من شتى القرَى، والنازحين من مختلف المدن؛ فالتف الناس حوله، وتَفَتحت قلوبُهُم لحديثه، وكثر أنصاره، وانتشر أتباعه.

فأثار ذلك حفيظة الكَهنة، وحَرّك كامن غيظهم، ودفعهم إلى التفكير فيما يريحهم منه، ويكفيهم شره؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يمسُّوه بأذى، أو ينالوهُ بضرر، فقد وعد الله بحفظه، وأيده بنصرهِ ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[1].

* * *

المائدة

خرج عيسى يَجُوبُ البلاد، ويجول في القرى، يدعو إلى دين الله، ويؤذن في الناس برسالته، ويحاولُ أن يقوِّضَ صُرُوحَ الظلم، ويطمسَ معالم الشرك؛ ومعه الحواريُّون[2]، يَشُدُّون أزرهُ، ويشتدّ بهم عضده، ويقاسمونه سروره، ويخففون عنه أحزانه، ويحتملون معه وعثاء السفر، وشَظَف العيش، ويحولون بينه وبين أعين الرقباء الذين يتبعون ظله أينما سار، ويطاردونه حيثما حلَّ، فقد كان عيسى من أسرة قلّ أعوانُهَا، وعزَّ نصراؤها، وَخَمَدت جذوة العصبية فيها، وللعصبيّة أثرها في دفع المعتدين، ورد كيد الظالمين، ألم يقل قوم شُعَيب لنبيهم: ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾[3].

أقاموا بقرية، وارتحلوا إلى أخرى، وتلبّثُوا بثالثة، وحَطُّوا رحالهم، بغيرها؛ وهكذا حتى أدّت بهمْ خاتمة المطاف يوماً إلى مَفازة مترامِيَة الأطراف، وقد أجدبت أرضُها، وأقفرت جنباتُها، وهناك طَوَوا من الجوع، وجفت منهم الحلوق، ووهنت قوتهم، وفترت عزيمتهُمْ، واشتد بهِم الكلالُ والإعياء، فنزلوا على غير ماء وطعام، وجلسوا يتبادلون الحديث في شؤنِهِمْ، ويقلِّبُونَ وجوهُ الرأي في أمرهِمْ، عَلّهُمْ يَهْتدون إلى خير الطرق لبثِّ

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٥٤.
(٢) الحواريون: أنصار عيس عليه السلام.
(٣) سورة: هود، الآية: ٩١.

دعْوَتِهِمْ، ومغالبة الصِّعابِ التي تعترضهُمْ، والنجاة من الأعداء الذين يترصدونَهُمْ.

وكان عيسى ـ عليه السلام ـ يُحيي آمالَهمْ، ويشحذ عزيمتهُمْ، ويُخَفف آلامهم، ويواسي المكتئبَ منهُمْ، ثم لا يفتأُ يَبيِّنُ لَهُمْ ما استغْلق عليهم فهمهُ، ويوضح ما انْبَهَمَ أمامهُمْ أمره.

وهؤلاء الحواريُّون ـ وإن كانوا قد شَهِدُوا برسالته وآمنوا بنبوته، واجتمعوا تحْتَ رايته، واستماتوا في سبيل نصرتِهِ ـ لا يزالون في حاجة إلى أن يزدادوا يقيناً إلى يقينهم، وإيماناً إلى إيمانهم.

وجاشَتْ تلك الرغبة في نفوسهم، فلم يلبثوا أن كشفوا لعيسى عما اختلجَ في صدورهم، فقالوا: يا عيسى، هل يستطيعُ ربك أنْ يُنزِّلَ علينا مَائدةً مِنَ السماء؟!

لم يكن ذلك شكاً في قدرةِ الله، أو طعناً في نبوَّة عيسى، فحاشاهم أن يكونوا من الشاكِّينَ في قدرة الله، أو المرتابين فيها؛ بعد أن آمنوا بالله وبرسوله؛ وقالوا لعيسى: آمنا واشهدْ أننا مسلمون، أسلمنا لك قيادتنا، وألقينا إليك مقاليدنا.

وقوم هذا شأنهم لا يسلك الشك سبيلاً إلى نفوسهم، وإنما سألوا تلك الآية ـ كما سأل إبراهيم ربّه من قبل، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

قال لهم عيسى، وقد عجب من أمرهم، وخاف عاقبةَ سؤالهم: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، واحذروا أن تقترِحوا أمثال هذه المعجزات، لئلا تكُون فتنة لكُم، وسبباً في فساد أمركم، أوَ لم ترَوْا ما تطمئن به نفوسُكُم، ويزيل كل شك تحسُّونه في قلوبكُم؟!

إن ذلك قد ينبيء عن عنَاد ومكابرة؛ فما لكُم تقترفون هذا الإثم، وترتكبون ذلكُم الجرم، وتطلبون تلكم المعجزة بعد أن رأيتم ما أجرى الله على يديَّ، من إبْرَاء الأكْمَه والأبرص، ثم ما شاهدتم من إحياء الموتى بإذن الله؟ فهل انتابكُم الشك، وداخَلكُم الرَّيب، وتسرَّب إلى نفوسكُم الظن، بعد أن رأيتم من الآيات ما يمْحَق كل باطل، وَيَمْحُو كل شك؟! يا قوم دعوا هذا اللجاج، واتركوا تلك الوساوِسَ إن كنتم مؤمنين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

هَدّءُوا من روعه، وسكَّنُوا من جأشه، وأبانوا له عن حقيقة الأمر وَحَليتِه، فقالوا: قد كنا صادقين في إيماننا، مخلصين في إسلامنا، ولسنا منكرين لآياتك، أو شاكين في رسالتك، وما زلنا مقرِّين بنبوّتك، مؤمنين بدعوتك، ما دفعنا إلى انتهاج هذه الطريق، وحملنا على اختيار تلك الآية، واقتراح هذه المعجزة إلا أن لها فضلاً ومزية؛ فنحن نريد أن نأكل منها، ألم ترنا وقد خَوَتْ منا البطون، وأصبحنا لا نجد ما يمسك رمقنا، ويخفف من سغَبنا[1]؟!

على أننا قد علمنا قدرةَ الله بالدليل، وشاهدنا آثاره بالبرهان، وعرفنا آياته بقراءة صُحُف الكَوْن، فآمنا به، وصدّقنا برسالته؛ فإذا جئتنا بتلك المعجزة اطمأنت قلوبُنَا، وازداد يقيننا، وثبت إيماننا.

ولتَعلم أننا على يقين من أنَّ معجزاتك تشفي أمراضَ القلوب، وتستأصل بذورَ الشك، وقد سبق أن أيدت لنا نبوتك، وعلمنا بها صِدق دعوتك، فلن ترى منا شكاً، ولن تجد انتفاضاً، وإنما سألنا هذه الآية ليزداد الدليل وضوحاً، والقلب اطمئناناً، وَالجَنَانُ ثبوتاً.

حنانيك! فإننا نعلم أنك قد صدقتنا، واستمددت وَحْيَك من ربنا، وأن الله مؤيدك بنصره، مُسْبغ عليك نعمته، ولكن معجزاتِكَ السابقة كانت أرضية، وهذه الآية التي نطلبها سماوية؛ سنرى بها أعظم مما رأينا وأعجبَ مما شاهدنا، فإذا أتيتَ بها كنا لها مُذِيعين، وبخبرها شاهدين؛ فيكثر تابعوك، ويزداد المؤمنون بك.

ولما رأى عيسى منهم إصراراً على طلبها، وإلحافاً في سؤالها، وعلم أنهم لا يَقْصِدُونَ إلى عَنَت[2]، ولا يدفعهم إليها شَكٌّ أو عِنَاد، وتبين له صحة قصدهم وصواب غرضهم، دعا الله تعالى فقال: اللهم يا مالك الملك، ومدبّر السمٰوَاتِ والأرض، ومتولي شؤون خلقك، ومسيِّر أمور عبادك ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾[3].

---

(١) السغاب: الجوع.

(٢) العنت: المكابرة عناداً.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٤.

أجاب الله دعاءه، وسمع ضَرَاعته، فقال: إني مُنَزِّلُهَا عليكُم؛ ليزدادوا إيماناً بك وثقة بنبوَّتك، ولكن ليعلموا أن هذه الآية تُلْزِمُهم الحجة، وَتُوحِي إليهم بالبرهان الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه؛ فمن يكفر بَعدُ منهم فإني أعْذِّبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين.

أنزل الله عليهم مائدةً من السماء، فاضت بالرزق السابغ، والخير الوافر، إنجازاً لوعده، وتأييداً لنبيّه، واستجابةً لدعوته، وخشيَ عيسى الفتنة إذ رآها؛ فدعا الله أن يجعلها رحمة لهم، ونعمة عليهم؛ وسأل ربّه أن يهديهم إلى الإيمان الثابت والطريق القويم. ثم قال لهم: ها هي ذي المائدة قد أنزلها الله عليكم، فكُلُوا مما سألتم، وَاشكُرُوا له، يزدكم من فضله.

طعِمُوا منها ما شاؤوا، وقرَّت بذلك أعينهُم، وَقَوِيَ إيمانهم، ثم تحدث الناس بتلك المعجزة الباهرة، والآية البينة، فآمن خلقٌ كثيرٌ، وازداد المؤمنون يقيناً في الإيمان وثباتاً عليه.

* * *

النـهايـة

كان عيسى جادًّا في رسالته، غير مُتَوَانٍ في دعوته، ينكر على اليهود ما دَرجوا عليه من النظم التي درّت عليهم الأموال الطائلة، وجعلتهم في بَسْطة من العيش وَسَعَة، ويعيب عليهم أن تستعبدهم دولةُ الألفاظ، وتأسِرُهم ظواهر الشريعة، وَيَنْعي[1] عليهم أن يطمِسُوا معالم الدين، ويبعدوا عن صراطه السوي، وَيُبَين لهم أنَّ ما هم عليه لا يُوَائِم روحَ دينهم، ولا يوافق ما يدعو إليه ربهم.

ولم يَكْنه عن مَنَاوَأتِهم ما أعلنوا من حرُوب، وما ألَّبوا من جموع، وما بَثّوا من عيون.

حتى إذا قهرت البيناتُ ألبابهم، وبهرت الآياتُ بصائرهم، وَخَصَم نورُ الحق حجتهم، لم تجد عقولهم سبيلاً إلى دفع حقه، أو طريقاً إلى مغالبته وصدّه، ولكنهم مع

(١) ينعى عليهم: يعيب عليهم.

ذلك كذَّبُوه بأفواههم وبألسنتهم، بغياً وعداوة، وحسداً ولجاجة، يخافون أن تبيد دولتهم، وتميد عروشهم، وتُطْوَى صحيفة سلطانهم.

وكَثُرَ مع ذلك أتباعه وأنصاره، وإن كانوا من طبقاتِ دُنْيَا، وأخلاط جاهلة.

حاول اليهود أن يخفِّفُوا من أثر دعوته، أو يُمَوّهوا على الناس أمره؛ فلم يستطيعوا؛ فقد كان كالفلك الدائر، وَالنَّجْم السائر، يُدَوِّي صوته بالدعوة إلى الله، في كل مكان، وينْقِم على اليهود حيثما حلَّ.

بل كان يجهِّل أحلامهم، ويفنِّد مذاهبَهم، حتى غضبوا عليه، وضاقوا ذرعاً به؛ فصوّروه لرجال السياسة مُؤَلّباً للجموع، مثيراً للفتن، متطلعاً للملك، لينضمّ هؤلاء تحت لوائهم في معاداته، وذلك شفاءٌ لنفوسهم، وتحقيقٌ لآمالهم.

وعيسى على كل حال وحيدٌ فريدٌ؛ ليست له عصبية تحميه، ولا قبيلة تؤازره وتنصره، ولكنه لا يحفل بغضب هؤلاء، ولا يرهب عَنَت أولئك؛ فقد تكفل الله بحفظه، ورعاه بقدرته، وطهَّرَه من الكافرين بدعوته، وعصمه من الجاحدين برسالته، ووعده أن يُحْبط مَكْرهم، ويردّ كيدهم في نَحْرِهم.

هالَ اليهود مَا رأوْا من تَألب الناس عليهم، وانصرافهم عنهم، وَخَيَّلت لهم نُفوسُهم أن عيسى قد تستطير بسببه الفتنةُ، وتكاد تشبُّ من بين أنصاره الثورة، مع أنه قد جَاء مصدقاً لما بَيْنَ يَديهِ منَ التوراة، ولكن أين هم منها، وقد بدّلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دارَ البوَار؟! واستبدلوا بدين الله ما يُنَمِّي ثروتهم، ويغدق الخير عليهم، وَيُبْقي السلطان في أيديهم، وزمام الشَّعْبِ في حَوْزتهم؟

ولما يَئسوا من مُقَاومته، وعجزوا عن صدّ تيار دعوته ـ وقد كاد يجرفهم ويمحو أثرهم ـ بَثّوا العُيونَ والأرصادَ له في كل طريق، يَنْفُثُون سموم الدسائس، وَيَحِيكُونَ لهُ خيوطَ العِدَاء، ويذيعونَ أنهُ سَاحر، وأنّ ما يُظهر من معجزات، وما يَدَّعِي من آيات إنما يمليه عليه الشيطانُ، وأنه لا يَنْحو نحوهم، ولا يقتفي أثرهم، فلا يَكُفّ عن أعمالِ الدنيا في يوم السبت، وهو يومُ عيدهم وعبادتهم، ثم رَمَوْهُ بالبعدِ عن دينهم، والكُفرِ بنبيهم، والمرُوق من عقائدهم.

ولكنَّ ذلك لم يَخْفِت من صوته، ولم يَثنه عن عزمه؛ بل دَأبَ في دعوته، واستمرَّ

يُؤذِّن برسالته، وهم يَخَالُون كل كلمة سَهمْاً؛ ويحسون لكل همسة وقعاً، فلاكتِ الألسنةُ الحديثَ في شأنهم، وابتدأت الجماعات تنفضُّ من حولهم؛ وخاف هؤلاء أن يَنْضَب مَعِينُ ثروتهم، وتنقطع موارد أرزاقهم؛ فقلّبُوا وجوه الرأي، ثم أجمعوا أمرهم بينهم على أن يبيدوا أصلَ الداء، ويستأصِلوا شأفته، وَبيَّتُوا له الشر، ودبروا القتل، وحتى لا يتألّبَ الناس عليهم، وينتقضوا على سلطانهم.

وما كان أجْهَلَهُمْ بدين الله، وأبعدَهُم عن صراطه، حين هموا بقتل نبيّ يؤمن بكتابهم، ويقر دينهم، وهو لم يجترم جُرْماً إلا دَعْوَتَهُم إلى التزام حدود الله، ونَبْذ المآثم والذنوب، ولم يقترف إثماً إلا أنه رغب في أن يردّهم إلى حقيقة الدين، ودعاهم إلى حسن القيام به، وحثهم على الإخلاص له.

عقدوا العزم على قتله، ولكنْ أنَّىٰ لهم لك، وهم لا يعرفون مكانه، ولو أنهم بحثوا عنه بأنفسهم لأعياهم البحث، بل لرَجعوا بالحسرة وباءوا بالخيبة، إذن فليلجئوا إلى الوعود الكاذبة، والأماني المعسولة، يبذلونها لمن يأتيهم به، وليركنُوا إلى العيون يبثّونها حوله، وإلى الأموال يغدِقونها على من يَدُلهم عليه، وأخيراً إلى الوالي يُثيرون غضبَه، ويوهمونه أنّ في دعوة، عيسى زوالاً لملك قيصر، وتقويضاً لسلطانه.

واجتمع رجالُ الدين في بيت المقدس يجيلون الرأي في أمر عيسى، لعلهم يهتدون إلى مكانه، فيثأروا لأنفسهم منه، ويشفوا غلهم، ويدركوا وِترهم.

وبينما هم في اجتماعهم ـ وقد ضاقت بهم السُبل، وتملّكهم الحزن واليأس، وحاروا في أمرهم، وخافوا أن تضمحلَّ دولتهم وتزول عروشهم، وينصرف الناس عنهم ـ وبينما هم في هذا الحزن الشامل، وذلك اليأس القاتل، دَلفَ إلى الحارس رَجلٌ من أتباعه، يقدم رِجْلاً ويؤخر أخرى، وأَسَرَّ إليه في خوف وحذَر، أن لديْه أمراً يريد أن يُفضي به إلى المجتمعين.

ولما دخل عليهم أقبلوا عليه يستنبئونه عن حاجته، ويسألونه عن سبب مَقْدَمِه، فأفضى إليهم بما سكّن اضطرابهم، وأذهب خوفهم، وأدخل السكينة إلى قلوبهم، وحدّثهم أنه إنما أهمّه خروج عيسى عن دينهم، وأقضَّ مضجعه إنكاره نظمهم، وأقذى عينيه أن يرى الناسَ يلتفون حوله، ويؤيدون دعوته، ثم أبدى ـ في حذر واضطراب ـ رغبتَه

في أن يدلهم عليه، ويعرّفهم بمكانه ليريحَهم من مصدر كَمدهم، فيصفو عيشهم بعد كَدره، ويستقر حالهم بعد قلقها.

وما كاد يُتم كلامَه حتى تنفَّسوا الصعداء، وطَفَحت وجوههم بالبشر، وأقبلوا عليه يمنُّونه الأماني، ويبسطون له واسع الآمال؛ فاطمأنَّ إلى حديثهم، وطابت نفسه بمعسول كلامهم، ولعلّه كان كذلك يشفي غلاًّ نَشب في صدره، أو حقداً عَلِق في قلبه.

ذهبوا به إلى الوالي، فقص عليه القَصص، وخبَّره بمكنون أمر عيسى، فابتعث مع ذلك الشيخ جنداً يأتون بعيسى، ليقضوا فيه أمرهم، وينفذوا حكمهم.

وكان عيسى حينذاك قد عَلِم ما يُخفي القوم، وما بيَّتوا له من شر، وانتهى إليه ما أجمعوا أمرهم عليه، وعرف أن عُيونَ الكهنة تترَصَّدهُ، ورجال السلطان يجدُّون في البحث عنه، فأخذ ينتقل من مكان إلى مكان، يختفي حيناً ويظهر آناً، وهو لا يَني عن بثِّ دعوته، ولا يقصر في إعلان رسالته، ولا يفتأُ يحضُّ على التمسك بحبل الله، ويدعو إلى البعد عن المنكرات والآثام، وتلاميذه لا يفارقون ظله، ولا ينأون عنه.

وآوى معهم يوماً إلى بستانٍ يسكنون إليه ليلتهم، وظنوا أنهم بمنجاة عن العيون، ولن يهتدي إلى مكانهم الباحثون؛ ولكنهم كانوا واهمين؛ إذ لم يكد يُجنُّهم الليل، ويسترهم الظلام، حتى تَهَدّى الباحثون إلى مكمنه، وعثروا عليه في مخبئه، فأصبح عيسى وتلاميذه بين أيديهم.

ولما رأى التلاميذ ما كاد يَحِيقُ بهم وبصاحبهم تركوا نُصرَته، وانفضّوا من حوله، وولوا هاربين.

أما عيسى فما كان الله ليسلمه إلى أعدائه، وهو يجاهد في سبيل إعلاء دينه، وقد أيّده بالمعجزات، وآزره بالبينات، ووعده بنصره على أعدائه، ونجاته من كيد الكائدين.

وفي هذه الساعة الرهيبة الفاصلة، تجلت قدرةُ الله، وامتدت إليه يد العناية، فأخفاه الله عن أعين الناظرين، ووقع تحت بصرهم رجل شديد الشبه به، وما لبثوا أن حسِبوه هو فانقضُّوا عليه، وأخذوا بتلابيبه؛ فتملكته الدهشة، وعقد لسانه الخوف، فلم يستطع الدفاع عن نفسه، ولا الإعلان عن حقيقة أمره؛ بل استسلم خائفاً مذعوراً، ولا غَرْوَ فالجماعات وقت انفعالها واضطرابها، لا تتحرّى ولا تستكنِه الأمور، بل

سبيلُها التسرع والاندفاع، والاكتفاء بما يشبه الدليل والبرهان، بلا روية ولا إمعان.

ذلكم الرجل هو يهوذا الذي دلّهم عليه، فردّ الله كيده في نحره، وجازاه على خيانته ومكره.

فاستاقوه إلى ساحةٍ صُلبَ فيها بين الصخب والضجيج، والفرح والتهليل، وهم يزعُمون أنهم قتلوا عيسى، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[1].

(١) سورة: النساء، الآيتان: ١٥٧، و١٥٨.